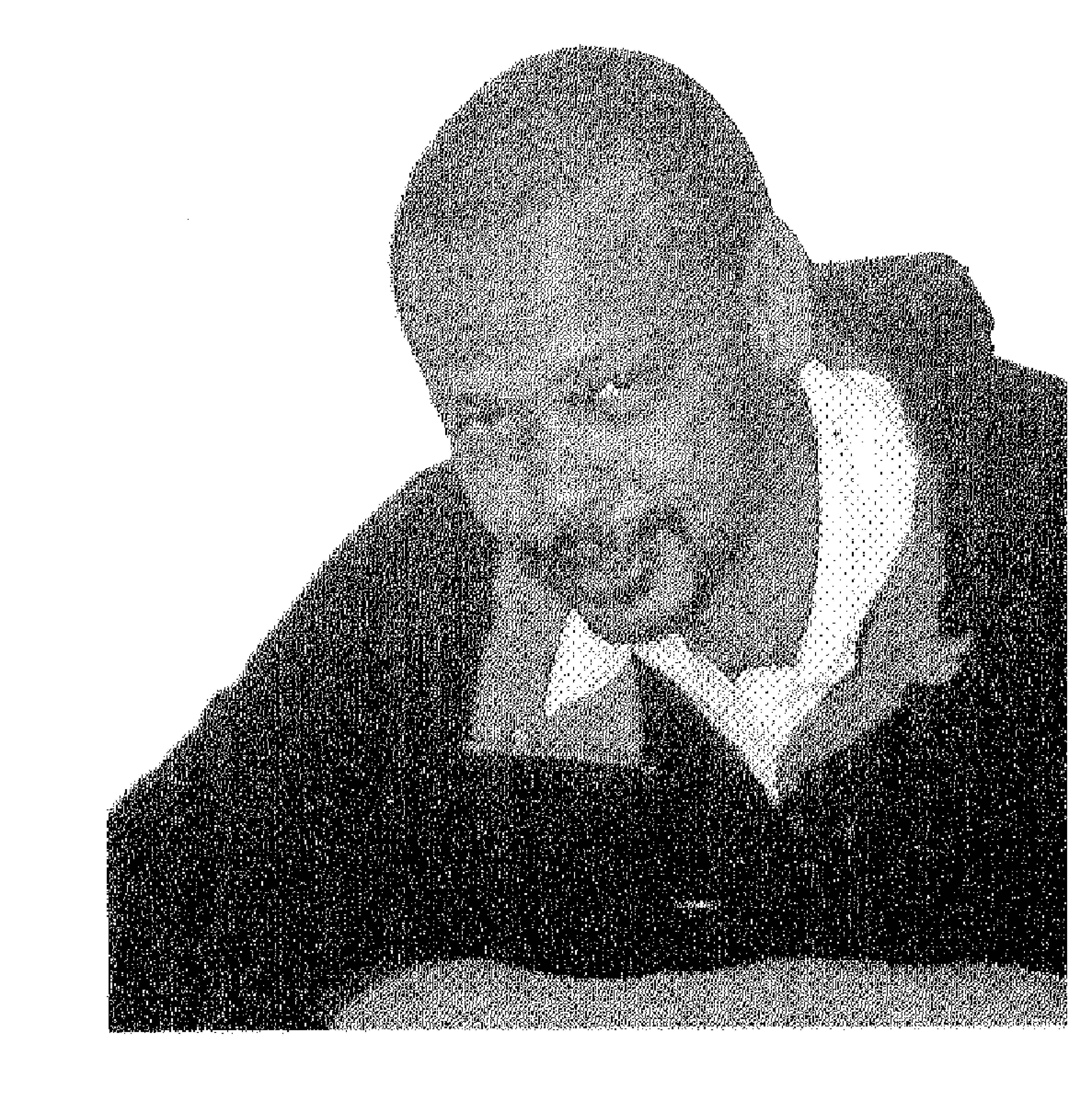


عبد الحميد البرنس
ملف داخل
كومبيوتر محمول
قصص



عبد الحميد البرنس

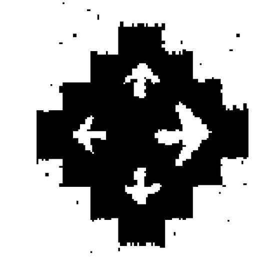
مواليد السودان ١٩٦٧

يعيش بين مصر و كندا و أستراليا

صدرت له مجموعة "تداعيات في بلاد بعيدة"، القاهرة، ٢٠٠٢، خاص

email:

ourneeds1@yahoo.ca



ملف داخل كومبيوتر محمول



ملف داخل كومبيوتر محمول

قصص

عبد الحميد البرنس

الطبعة الأولى ٢٠١٠

دار شرقيات

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٢٣٩٠٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨
sharqiyat2010 @yahoo.com
غلاف: أحمد كامل

البرنس. عبد الحميد
ملف داخل كومبيوتر محمول : قصص / عبد الحميد البرنس –
ط ١. – القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
٨٦ ص ؛ ١٤X٢٠ سم.

رقم الإيداع ١٣٦٠٧ / ٢٠١٠ تدمك ISBN 978-977-283-340-1

قصص -- العنوان
ديوى ٨١٣

ملف داخل كومبيوتر محمول

قصص

عبد الحميد البرنس



إلى ولديَّ،

محمد وأنيس،

لا وصايا

"إذا كنتَ تعتقد أنّك قادر على أن تعيش دون كتابة،

فلا تكتب"

ريلكه

على درب البلاد البعيدة

كائن

أعرفه كما أعرف تماماً صوت بطني لحظة جوع ممض.

لا أدري متى وأين وكيف بدأت علاقتي به. لكن المؤكد أنه ظل يلازمني عبر أغلب مراحل حياتي المختلفة. مرة أقول من باب العزاء لنفسي إنه (يا صابر) ليس سوى وهم. مرة أخرى يخال لي لسبب أو لآخر أنه عصي على رؤية كل الناس.

ومع ذلك، كنت ولا أزال أراه دائماً هنا أو هناك. يجلس قبالتي داخل مركبة عامة. يمشي إلى جواري بخطى أثيرية منصتاً لوقع قدمي على جانب شارع مقفر آخر الليل. أو ينطوي على نفسه بمعدة خاوية عند ركن معتم من إحدى الغرف الكثيرة التي أنفقت فيها سنواتي المقتربة من الستين حثيثاً.

زوجتي ماريا التي تصغرني بنحو عشرين عاماً تقول إنها لا تراه. ولكن تتفهم من واقع خبرتها الخاصة ما يحدث لي. قالت ذات مساء بعيد كمن يحاول جاهداً أن يمحو أسى

بأسى إن والدها الذي جاء إلى كندا لاجئاً من ضواحي إحدى مدن بوليفيا المجهولة قبل أربعين عاماً ظل يراه بدوره بالملامح الحزينة نفسها لكلب جائع حتى الممات.

وقتها سأل الممرضة المتابعة أن تتركه وحيداً في غرفته الكائنة داخل أحد المباني السكنية المخصصة لكبار السن في المدينة. قال لها فيما يشبه اللغز وهو يغمز بعينه اليسرى كعاشق عريق إنه يتوقع زيارة خاصة لن تأخذ من وقته الكثير.

بعد نحو الساعة تقريباً عادت تطرق الباب قبل أن تدفعه إلى الداخل برفق.

كان هناك، يتمدد على سريره الصغير بلا حراك، وعلى فمه شبح ابتسامة. ماريا قالت ما لا يزال يثير حيرة الممرضة لحظة أن أخبرتها برحيل والدها أنه لم تكن تتوقع أن الموت يمكن أن يكون قريباً إلى هذه الدرجة من رجل ظل يأكل على ذلك النحو حتى وهو على أعتاب الثمانين.

أذكر في أحد أيام هذا الشتاء أننا دعونا زوجين شابين من جماعة مسيحية تنتمي إليها زوجتي تدعى «شهود يهوا» لتناول وجبة الغداء في مطعم صيني قريب. كانا قد حضرا من السلفادور قبل نحو العام كمهاجرين جديدين. فجأة أخذ الزوج يتحدث عنه. بينما أخذت زوجته توافقه بإيماءة حزينة برأسها من حين إلى حين.

قال: «كانت أمي تشعر بفم صغير يمتص من ثديها الآخر كلما شرعت في رضاعتي». فم أشبه بالظل في ليالي الريف الداجية. لا تراه. لكنه موجود دائماً هناك. ما إن تغمره بقعة من الضوء حتى يطل بعينين جاحظتين وجسد منهك هزيل كما لو أن الطعام لا وجود له في هذا العالم.

كنت أصغي إليه بحواسي كلها قبل أن أنتبه على حين غرة إلى تلك الغلالة الرقيقة وهي تظلل عيني ماريا كغيمة على وشك الهطول.

بعدها مضت الدقائق ثقيلة متباطئة. وبدا أن لا شيء آخر يمكن أن يقال. فقط كانت تسمع الضجة الأليفة لآنية الطعام. وذلك اللغط الحميم المتناهي من الموائد المجاورة من آن لآن.

حين بدأت أتطلع إلى ندف الجليد المتساقطة في الخارج كعادة قديمة، رأيته وهو يلوح لي بيده من وراء مدخل المطعم الزجاجي ذي الإضاءة الخافتة. «لعلك تراه في هذه اللحظة»، سألني الزوج بشيء من الحزن، وقال: «يا إلهي، خلت أنني تركته ورائي هناك»!.

في ذلك المساء، قالت ماريا إن والدها في أيامه الأخيرة كان يراه مثل رجل نحيل يشبه حطام ذكريات بعيدة مات معظم أطرافها. وما إن يراه حتى يضرب بنصائح الأطباء عرض الحائط. ويشرع لسبب ما في تناول كميات كبيرة من الطعام تكفي في كل مرة لإشباع كتيبة منهكة من جيش الكولونيل

جرمان بوش أيام حربه الضروس التي أوصلت غوالبرتو فيلارول إلى سدة الحكم قبل أن يتحول الأمر برمته في ظرف أقل من ثلاث سنوات إلى كارثة ألقت بوالدها في أحد المطاعم الكندية غاسلاً للأطباق وسط الكثير من الآمال الثورية الغابرة.

لا أذكر قط أنني سمعته وهو يتكلم طوال علاقتي الممتدة معه.

كان عادة ما يجلس حزيناً يتأملني وأتأمله في صمت. ذات مرة رأيته في القاهرة وهو يطل من عيون أطفال في أسمال بالية كانوا يحدقون من بعد في «فترينة» لعرض الحلويات في شارع مزدحم. أو هكذا خيل إليّ. المشاعر وحدها تطل من العيون. وهو شيء كائن. له ملامح ووجود يحجبه القرب الشديد غالباً. قيل إنه لا يظهر سوى لأناس يعايشون ظرفاً كالذي عايشته معظم أيام عمري. الآن، ما الذي يجعله يلوح لي بيده من وراء مدخل المطعم الزجاجي ذي الإضاءة الخافتة؟.

«إنه يظهر لك في هذه اللحظة (يا سابر)»، تقول ماريا بأسى، وتضمني إليها طويلاً، يحدث ذلك على الأرجح حوالى الثالثة بعد منتصف كل ليلة تقريباً حين تفتقد وجودي إلى جوارها داخل غرفة النوم بعد فترة قد تطول أو تقصر.

آنذاك، كان أول ما أحس رائحة جسدها الدافئة وهي تتسلل إلى أنفي من وقفتها حافية القدمين داخل أحد قمصان نومها بينما تميل مستندة بكتفها الأيسر إلى باب المطبخ

المشرع تراقب بحنان غامر محاولة تجاهلي له ببحث مضنٍ عن شيٍء آخر لا وجود له أتصور وقتها أنني سأعثر عليه مختبئاً داخل درج ما.

خفاء

أشعر كما لو أنها تريد أن تقول لي شيئا.

قبلها، قمتُ بمراجعة مكتب الأمن في المستشفى. سألتهم عما إذا كنت سأعمل الليلة كحارس موفد من الخارج في عنبر المرضى النفسانيين، أم سأذهب لمراقبة أولئك المصابين بداء الصدر؟.

كان وجودي، إلى جانب أولئك المصابين بخلل في عقولهم، يجعلني أشعر، في كل مرة، كما لو أنني أجلس إلى شيء قابل للانفجار في أية لحظة.

"كالعادة، إذا لم تكن هذه هي المرة الأولى لك هنا، فكل ما عليك القيام به هو أن تجلس وتراقب حركة المصابين بمرض (إم.آر.آي.أس) المعدي. تأكد فقط من أن أولئك المرضى يضعون قناعا طبيا واقيا في حال مغادرتهم لغرفهم للتمشية أو التدخين أو لأمر آخر. لا يهم".

ذلك ما ظلوا يخبرونني به عادة داخل المكتب حين أوفد إلى قسم الأمراض الصدرية. ما يثير حيرتي أن رئيس وردية

الليل المداوم في الموقع ظلّ في كل مرة يعطيني الانطباع نفسه كما لو أنه يراني كحارس زائر للمرة الأولى في حياته.

لم يعد ذلك يحزنني كثيرا.

لقد عنّ لي أحيانا أن أسألهم في المكتب الرئيسي القيامَ بتثبيتي في موقع واحد عوضا عن التنقل المُنهِك بين الورديات ومواقع الشركة المنتشرة بطول المدينة وعرضها. لكنني لم أفعل ذلك حتى الآن خشية أن أُواجه بعبارة عسكرية صارمة: "الأمر برمته يعتمد هنا على (الأقدمية)".

الثانية بعد منتصف الليل. لم يحدث أمر ذو بال بعد. منذ قليل، تناولت وجبة خفيفة. بعدها، أخذت أمشي جيئة وذهابا داخل العنبر، من غير هدف معين، قبل أن أعود إلى مكاني في انتظار أن يحدث شيء ما، أعلم من واقع خبرتي المحدودة أنه قلما يحدث.

هناك، في ذاكرتي، لا تزال تومض ملامح باهتة من معالم الوطن البعيد، مثل وجه مراهقة منحتني ذات مساء فمها عبر حبل الغسيل خلسة. لقد بدا الأمر لي في الآونة الأخيرة كما لو أنني أسير داخل حلم لا نهاية له. إنه تعب المنفى.

كنت أجلس إذن عند نهاية الطرقة الطويلة المضاءة، التي تطل عليها من الجانبين غرف المرضى الموصدة، التي أخذ يتناهى من داخلها بين فترة وأخرى سعال جاف مكتوم؛

عندما رأيتها لأول مرة وهي تقبل من ناحية مدخل العنبر المواجه لجلستي تلك.

لسبب ما، وهي تقترب مني أكثر فأكثر، وجدتني أفكّر فيها كوجبة شهية على مائدة الغد. شفتان شهوانيتان. ربعة. ممتلئة العود قليلا. متوردة الخدين. لها نظرة الغرباء الحزينة الساهمة حتى وهي تنظر ضاحكة إلى محدثها. بدا من ملامحها وهيئتها العامة أنها ممرضة فلبينية على أبواب الثلاثين.

حتى اللحظة الأخيرة، لم أكن واثقا أنها تقصدني في جلستي تلك. لقد تعودت لفترة طويلة على أن لا يراني الناس. لكنها لدهشتي الشديدة حيَّتني بتردد. وبدت مترددة أكثر في الجلوس قبل أن تلقي بثقلها كله على مقعد جلدي إلى جواري. لا أذكر آخر مرة وجدتني أنعم فيها بكل ذلك القرب الحميم من أنثى.

مضت دقائق من صمت. غالبت خلاله أريج عطرها الخفيف الآسر. لم أعثر للأسف على أدنى قدر من تلك القوة اللازمة لبدء حوار من أي نوع. ظننت قبلها أن الليلة كلها لن تسع حجم الكلمات المختزنة في داخلي. ومع ذلك، وددت فقط لو أنني أضع يدي على يدها، ثم أخبرها بصوت خافت أنه بعد انتهاء "هذه الوردية" لن أجد أبدا مَن تنتظر قدومي في البيت، هناك.

كانت قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل بقليل. الحركة داخل العنبر لا تزال خافتة متباعدة. كنت لا أزال أنظر

إليها من طرف خفي والتفكير فيها كوجبة شهية على مائدة الغد يعاودني. وقد زاد من أواره كل ذلك السكون المحيط. فجأة، سألتني إن كنت أعرف شخصا من (آفركا) يدعى (باتريك) ظلّ يعمل لنفس شركة أمن الحراسات الخاصة التي أعمل لحسابها.

لم تكن نظرتها ساهمة حزينة هذه المرة. كانت نظرة تجمع، في آن، وهي تنفذ بتوسل إلى أعماقي السحيقة النائية، ما بين اليأس والرجاء. كانت نظرة سيدة متعبة تنتظر إجابة قدرية.

"لا، يا سيدتي، للأسف، لا أعرف شخصا بهذا الإسم".

مضت دقائق أخرى من الصمت. كنت أستدير نحوها هذه المرة بنصفي الأعلى كله. كانت تبتسم وهي تشيح بوجهها نحو إحدى الغرف محاولة إخفاء ستارة الدموع الخفيفة التي أخذت تظلل عينيها السوداوين على حين غرة. قلت، في نفسي، وأنا أتتبعها بناظري إلى نهاية الوردية، وهي تدلف من غرفة لغرفة، "أنا أيضا (يا سيدتي)، أضعت فيما مضى حبا عظيما هنا وهناك".

لغة

حدث في الماضي القريب وأن قامت شركة أمن الحراسات الخاصَّة التي أعمل لحسابها منذ سنوات عديدة بتدريب حارس نحيف كعصا الراعي يدعى (نورمين) على العمل كبديل في حال أن مرض أحدنا أو تغيب عن الموقع لسبب أو آخر.

بدا ذلك للوهلة الأولي خطوة روتينية عادية. لم تلفت الانتباه في كثير، أو قليل. وما جرى بعد ذلك دفعني، كمثقف متقاعد، إلى التفكير طويلا في طبيعة النفس البشرية، بلا طائل.

جيف، الأمريكي الأصل، بعد أن رأى نورمين أمامه لأول مرة، قال لي بصوته الجهم الغليظ: "لوجه كل إنسان في هذه الحياة كلمة تماثله، كما لو أنها تنتظر ميلاده منذ بدء الخليقة، وكلما رأيت هذا الحارس الجديد، تقفز إلى ذهني عبارة (قابل للصفع)". لقد عبر جيف وقتها بدقة متناهية عن طبيعة العلاقة المستقبلية المحتملة بينهما. وهو في هذا ليس نسيجا وحده. أجل، نورمين هذا "يا أخي" عبارة عن "غباء مطلق يسعى على قدمين اثنتين، تصوَّر"؟.

هكذا، أخبرني بدوره زميلي توماس من غانا بعد ساعتين فقط من قيامه بتدريب الحارس البديل على كيفية التحكم في مداخل ومخارج المبنى آليا.

ما أسرّ لي به وقتها أنه غدا من دواعي دهشته الحقيقية في هذا العالم أن يرى رجلاً أبيض بمثل كل "هذا الغباء". لكن الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة لتوماس كان يتمثل في أنه بدأ يتخيل "منذ الآن" تعابير الارتياب التي يمكن أن تظهر على ملامح ذويه من ضواحي العاصمة أكرا بمجرد أن يحكي لهم أثناء إجازته المرتقبة عن "غباء رجل أبيض يدعى نورمين".

حكا لي ساعتها أن أجداده، في سالف الزمان، قد قاموا من قريتهم برحلة بالدواب استغرقت أكثر من يوم وليلة، للتأكد فقط من صحة شائعة مفادها أن أحدهم شاهد رجلا أبيض يتغوط في العراء "غير بعيد من شجرة الأرملة (الضاحكة)".

لقد تيقن القوم وقتها من وجود حقيقة هامة "في هذا العالم" مفادها أن "الخراء بعد هذه اللحظة التاريخية الحاسمة" ليس خاصية يمكن أن تلحق بالإنسان الأسود وحده. بيد أن بعض عقلائهم قد حذر من إمكانية أن ينطوي الأمر برمته على خدعة. لا سيما وأن عددا من السحرة المحليين من "أمثال يبواه" لهم "في الواقع" خاصية التلون بجلود مختلفة.

الحق، أحدث نورمين خلال الأيام التي تغيبت خلالها بروكلين التي أصيبت بنزلة برد حادة فوضى عمَّت المجمع البنكي بسوقه التجارية الضخمة بأسره. كانت التقارير تترى

من كل حدب وصوب على المكتب الرئيسي في شارع "برودواي". ومع ذلك، بدا لأمر أو لآخر أن لا غنى عن "هذا النورمين". حتى أنني بدأت أصدق تلك الشائعات التي ظلت تحيكها بروكلين ببراعة شديدة عن عناد ذلك المكتب و"عنجهيته" كلما سنحت الفرصة.

كانت تتحدث عادة على نحو فلسفي بدا لي وقتها لسبب ما كأمر لا يتناسب وتكوين صدرها الكبير الضخم المكتنز، قائلة بتذمر أخذ يخمد بمرور الوقت شيئا فشيئا: "إنهم هناك في المكتب الرئيسي هكذا!، إذا قلت لهم أريد هذا الشيء، يقولون لك بكل برود ممكن: لا. وإذا قلت لهم لا أريده، يقولون لك هذه المرة بوقاحة تامة: لا، يجب عليك أن تأخذه. إنها إرادة القوة (يا صاح)".

لقد كادت أفعال نورمين "الخرِقاء" تلك أن تدفع بجيف إلى الجنون في أوقات كثيرة. كيفَ لا؟، وجيف بطبعه حاد المزاج، قابل للاشتعال في أية لحظة، وبالكاد يسيطر على ما تبقي له من أعصاب، ولولا صرامة القوانين الكندية لتصرّف في كثير من الأحيان كما لو أنه يسلك في أحد الشوارع الخلفية لمدينة نيويورك التي ولد ونشأ فيها لأبوين من أصل إيطالي نسيا على ما يبدو في زحمة أيامهما أن ينقلا إليه شيئا من لغتهما الأمّ.

و يبدو أنه، مع مرور الوقت، و"تراكم أخطاء الحارس البديل القاتلة"، حسبما ورد في سياق أحد التقارير الأكثر

تشاؤما؛ قد وجد متنفساً لا يخلو من طرافة لِكمّ المشاعر السلبية التي ظلّ يحدثها نورمين في داخله من حين لحين. كان يسألني في أوقات الراحة على وجه الخصوص بنوع من الغبطة الطفولية عن معنى مقابل لبعض المفردات والعبارات في "العربية".

هكذا، ما إن يقع بصره على نورمين حتى يرميه بما تعلم للتو من لغة الضاد بلهجة لا يعلمها سوى الله. كان يشير إليه عادة بسبابة مستقيمة تكاد أن تلامس أرنبة أنفه، قائلاً:

"غبي غبي".

نورمين "المسكين"، ظلّ يفتح في العادة فمه على اتساعه، قبل أن يرد عليه، قائلاً بطيبة وحيْرة لا متناهية: "المعذرة، يا جيف، أنا لا أفهمك". بيد أن جيف كان يرى في رده في كل مرة مبرراً آخر لمواصلة السباب بالعربية:

"وسخ وسخ".

حين يعجز نورمين عن الفهم هذه المرة أيضاً لا يجد جيف أمامه من حيل أخرى سوى أن يتحول إلى لغته الانجليزية الأمّ شاتماً: "صن أوف ذا بيتش".

لكن الأمر قد بدا بالفعل في سبيله إلى أن يتحول يُعيد سفر توماس إلى غانا إلى ما قد لا يُحمد عقباه. آنذاك، جاءني جيف، في المكتب الصغير المكتظ بشاشات المراقبة وأزرار

التحكم من بعد، وهو يكاد أن يتميز من الغيظ مقسماً أنه لابد وأن يضرب "نورمين الغبي" مهما تكلّفه الأمر.

"لماذا"، سألته بشيء من حيلة الغرباء ومكرهم. جيف صمت لحظتها مسافة قبل أن يسألني عن معنى عبارة أخرى في العربية. قال بعدها بخليط من اللغتين الانجليزية والعربية: "إذن هي (إرادة الله) أن أضرب نورمين الغبي".

ملف داخل كومبيوتر محمول

مضى الآن أكثر من ساعة على بداية الوردية.

زميلي، مايكل، لا يزال هناك، يتفقد الأوضاع عبر طوابق المبنى. يحمل في يده جهازا صغيرا يدعى "البايب". يضغط به على دوائر معدنية صغيرة تتوزع على أرجاء الطوابق الأحد عشر العريضة الممتدة كخواطر سجين.

في الصباح، يأتي تيري، الرئيس، بقامته القصيرة، يفرغ محمولات الجهاز على الكومبيوتر بعناية ودِربة، ليعلم على وجه الدقة في أية ثانية كنا بين دائرة معدنية وأخرى.

بعد نحو الساعتين تقريبا، حين يعود مايكل من جولته التفقدية ليتبادل معي المواقع بوجه مرهق بائس حزين، سيشرع كعادته وهو يدفع نحوي حزمة المفاتيح و"البايب" دفعة واحدة في شتم "مايكروسوفت"، قائلا:

"شكرا بيل غيتس أبانا الحديث".

لا أزال، أدخن أمام الواجهة الزجاجية المصقولة للمبنى الحكومي الضخم كحارسٍ ليلي أتعبه الغناء. لا شيء يتحرك قُبالتي على مدى كتل الجّليد المترامية هنا وهناك. لا شيء

يطرق أذنيَّ سوى أزيز المراوح الهوائية المتناهي من الطبقة تحت الأرضية في صوت مكتوم ورتابة. شجية هي "يا أماندا" أغاني الهنود الحمر:

"مَن كان يغني هناك"؟.

بدأتُ أنصت لحظة أن غادرني مايكل مباشرة إلى إحدى مقطوعات "تايتنك". مأساة أولئك الذين ذهبوا في ذروة تشبسهم بالأمل إلى قاع المحيط قبل نحو قرن ولم يعودوا. أية لوعة، بل أية وحشة، لعينٍ في برودة الماء وحلكتها تشد إليها طوق نجم بعيد؟.

الموت وحده لا يخيفني. يخيفني "ياأماندا" الموت وحيداً. أتذكر على نحو غامض وجهَ شاعرٍ طيّبٍ من مصر يدعى "صلاح عبد العزيز". ولا أفطن إليَّ أنني منذ لحظات قليلة أدلف عبر موسيقى "البُلوز" إلى حزن من نوع آخر. هكذا، أرهف أذنيَّ لأنّات أولئك العبيد العائدين من حقول القطن في جورجيا أو مسيسبي. وقد خالجهم شعور ممض أن لا شيء سينتظرهم عند مراقدهم الفقيرة المعدمة بعد نحو خطوتين أو ثلاث، سوى الرهق، أو الحنين.

فجأة، يعم صخب إحدى أغنيات "الهيب هوب".

كانت قد تركتها لي على الجهاز ومضت. "مؤسف أن أغادر العالم "يا أماندا" بلا قدرة حقيقية على الرقص". أجيل بصري ما بين أجهزة الكمبيوتر والمراقبة. تعشي عينيَّ غلالة

من نعاس. وهناك، في قلبي المتخم ببقايا اللحظات الأخيرة، أخذ يتمدد ظل لغناء قديم:

يا أنيسَ الحُسنِ...... يا عالي المكانةْ

أهدي لي مِن فضلك نظرةْ أو بُرتكانةْ

ثمة حاجة ماسة إلى غناء من نوع آخر. أواصل الضغط على "الماوس". يتراءى لي وجهها في هذه اللحظة مثل حلم بعيد المنال وغائم. أخيرا أعثر على أغنية قديمة للكندية "سيلين ديون". أية رغبة غريبة في الفرح والحياة تتخلل كياني الآن، أية مشاعر ظلت مختزنة نحوها لا تزال تنمو على مَر السنوات والأيام. لكن وجه أماندا أبدا لا يغادرني.

و... وجهها، يا لغبار النسيان!.

أُفكِّر "ربما يوجد في موسيقى الريجي بعض العزاء". أغمض عينيَّ مسافة. وجه قريب. آخر بعيد. وثالث لشاعر. "أوقف هذا القطار". ذلك صوت بوب مارلي وهو يعلن بذات النغم والصوت الآسر الحزين عزمه على المغادرة. أتساءل في سهوم:

"إلى أين"؟.

ثمة ندف من جليد خفيف في الخارج تنصب خيمتها فوق المصابيح المضيئة منذ فترة. الريح لا تزال ساكنة. أبصق في أعقاب آخر الأنفاس. شأن جدي في زمان بعيد. الوجوه التي

أوغلت في الغياب شيئا بعد شيء، لا تنفك تحضر إلى عزلتي كثيرا هذه الأيام.

أقذف بعقب السيجارة المشتعل بعيدا. أراه وهو ينفصل من بين أصابعي مثل علاقة أنهتْ أواصرها خيانة. يتوقد هناك أسفل الجليد الطازج المتساقط خفيفا للحظة وينطفيء. أتجه إلى الداخل بخطى بطيئة مثقلة. أجلس في مكاني المعتاد مواجها المدخل الزجاجي الفارغ.

مايكل لم يعد بعد.

عبثا، أحاول تذكر ملامح وجهها. أضغط على "الماوس" في شرود. "ستكتب عن علاقتنا معا"، قالت نظرة أماندا ساعة أن غادرتني مرة واحدة وإلى الأبد. وهي تنتحب "ما حدث حدث ولا سبيل الآن إلى محوه". أبتسم بمرارة. "لكننا آخر الليل نمضي وجوها تتفسها الهواء"، قال راثيا الأصدقاء القدامى. وهي في كل مرة تضحك، وتقول محتجة: "لا، أنا بأهديك نظرة". وقتها، ألح معاندا مثل طفل كبير: "لا، أنا عايز برتكانة". لا يزال بريق ضحكتها، عبر ركام السنوات، يومض في ليل الذاكرة المدلهم، كلما أشجتني، أو تناهت إلى مسامعي: تلك الأغنية.

هي

و نظرتُ إلى موقعها الأليف في المكان. لكأنها لم تكن من قبل هناك. كان شاغرا هذه المرة. تملؤه الوحشة، والسكون، وشيء آخر كالفجيعةِ: حزين وقاتم.

عصر هذا اليوم، تراءت لي، هي نفسها، من وراء نافذة الصَّالة للحظة ببشرتها الحليبية البيضاء الصافية، مثل طيف، لبث قليلا وتلاشى. آنئذ، آنئذ فقط، أدركت مدى لوعة ذلك الفراغ الكبير الذي أحدثه فراقها المُبكّر في نفسي.

كان الولدان الصغيران قد اعتادا على وجودها في حياتنا كشيء دائم وخالد.

هذا الصباح، حين خرجت إلى صحبتها لآخر مرة، ناديتهما باسميهما تباعا، وطلبت منهما أن يلقيا عليها عبر نافذة صالة المعيشة الزجاجية الواسعة نفسها "تحية الوداع".

لكأن أمرا عاديا يحدث.

واصلا ركضهما المرح السعيد، بلا مبالاة. توقفتُ، إذ ذاك، عند عتبة باب الخروج الداخلية، قليلا. أستعيد في نفسي

صدى انجليزيتهما الوليدة المستمدة من مسقط رأسيهما في كندا:

"مع السلامة، نراك لاحقا".

ناديتهما مرة أخرى، قائلا:

"للأسف، لن ترياها ثانية".

هذه المرة، كفّا عن اللعب تماما، اقتربا من زجاج النافذة السميك، نظرا إليها في صمت، ولوّحا تباعا بيديهما الصغيرتين في اتجاهها، قبل أن يقولا بتسليمٍ كمَن فهم:

"وداعا".

و كاد هذا أن يقتلني.

حين عدت ظهر اليوم نفسه، من غيرها لأول مرة، أخذ ابني الكبير، ذو الثلاث سنوات ونيف، يتأمّل مكانها الخالي من وراء النافذة، تلفه دهشة وحيرة وذهول وتساؤل.

اقتربتُ بهدوء وخطىً وئيدة يلفها صمت أبديّ من وقفته تلك أعلى منضدة القهوة الخشبية الموضوعة لسلامتهما عند أحد الأركان، وهمست في أذنه، قائلا:

"للأسف، يا أشرف، لن نراها مرة أخرى".

كنت أغالب موج الحزن الموّار في دواخلي بجلد وصبر شديدين. كان لا يزال ينظر إلى مكانها الخالي مثل قلبٍ فرغ من البكاء لتوِّه. قال بصوت هامس:

"لماذا، يا أبي، لا نستطيع رؤيتها، مرة أخرى"؟.

لم أُجِب.

وهو يتابع بالنبرة الخافتة نفسها:

"لماذا، يا أبي"؟.

كِدت أن أقول له:

"إنها مشيّة الله، يا ولدي".

خِلته لن يفهم.

ورأسي لا تزال قريبة من رأسه، توجه نحوي بعينين حزينتين، وهو يدير ظهره في اللحظة نفسها للنافذة الزجاجية. لعل عيناي كما نبرة صوتي الأسيانة قالتا له في تلك الثانية كل شيء. إذ ما لبث وأن عانقني في صمت مطهم بعزاء طفولي غامض.

أتذكر الآن أول لقاء لنا بها في غمرة ذلك اللون الرمادي الحالم لأول المساء. حدث ذلك قبيل ولادة ابننا الثاني بيومين. قالت زوجتي وقتها وهي تشير إلى بطنها:

"عمر يأتي إلى الدنيا متأبِّطا رزقه".

ما إن صعدنا إليها، ورائحة الأشياء الجديدة تفوح منها، حتى بدا العالم المؤتلق بأضوائه في الخارج مختلفا، بل وغنيا بالوعود والإمكانيات المحتملة، فإذا شقاء الماضي القريب والبعيد معا مجرد ذكريات باهتة في عِداد الموتى ولا حنين.

في ذلك المساء، بدت حقا مثيرة، وهي تتابع سيرها على طريقة "واثق الخطو يمشي ملكا"، بينما رقاب الناس تلتفت نحوها من آن لآن، يبتسمون من داخل سياراتهم أحيانا، لعلهم يباركون أولى خطاها على الطريق، وعند تلك الإشارات الحمراء، أخذ يستقر على أعينهم مثل تلك النظرة الساهمة التي تعقب في العادة رؤية الأنثى الجميلة على ضفة لا جسور إليها.

بدت زوجتي إلى جواري ساكنة إلى حين، غارقة في صمتها وطافية في آن، لا يُحرِّكها شيء من تأمّلاتها، سوى توجسها من حداثة عهدي بالقيادة، سوى تلك الصيحات والكلمات الصادرة من قِبل أولئك الغرباء، الذين أخذوا ينبهونني على الطريق بطيبة، قائلين كلما سنحت الفرصة "إنها لا تحمل لوحة أرقام تشير إلى هويتها".

كان الوقت يسعفني، أثناء تلك الطريق الطويلة الممتدة إلى البيت غرب المدينة، لشكرهم أحيانا قبالة بعض الإشارات الحمراء المتكررة في تتابع متقارب كما لو أنها نمش على وجه المدينة.

"سيدي، لعل لوحة الأرقام قد سقطت أثناء سيركم". "لا، يا سيدتي، لم تسقط، لقد قمنا فقط بشرائها من التوكيل قبل

دقائق، معي هنا تصريح بالمرور المؤقت، غدا أذهب إلى وكالة التسجيل، هذا كل ما في الأمر، شكرا على أية حال". "في الواقع، سيدي، لديك سيارة فاتنة". "أوه، شكرا مرة ثانية". "رحلة آمنة، سيدي". "رحلة آمنة".

كانت سيدة بيضاء، نحيفة، في منتصف العقد الرابع من عمرها تقريبا، توقفتْ وقتها بمحاذاتي تماما، وبدا على المقاعد الخلفية لعربتها (الفورد) ذات الدفع الأمامي الحديثة نسبيا طفلتين مبحلقتين في اتجاهنا وقد بدا لدهشتهما المتصلة كما لو أنهما تطالعان أعجوبة.

فجأة، علا صوت زوجتي ساخطا حانقا ومعاتبا "عليك (حبيبي) أن تركز فقط على الطريق أمامك، لا بد وأنك تريد قتلنا، لا تتجاوب معهم (حبيبي) هكذا، هؤلاء الناس (حبيبي) لا شغل لهم، هل نسيت (حبيبي) أنني حامل"؟.

الحزن لا يمكث لدى الأطفال طويلا.

أخذ أشرف ينشغل بعد عناقه لي بإحدى اللُعب الكثيرة المتناثرة على أرضية الصالة كيفما اتفق. "لا بد أن عمر قد أخلد إلى النوم في الطابق الأعلى"، فكرتُ في شقيقه ذي الثمانية عشر شهرا، مرخيا أذنيّ في آن لتلك الأصوات الأليفة المنبعثة من داخل المطبخ القريب، حيث تناهى من هناك أخيرا صوت زوجتي متسائلا عن "عملية البيع".

بالكاد، خرج صوتي:

"لقد أوصلني بها المالك الجديد إلى هنا. لم أدخل (يا حبيبتي) لفوري. توقفت عند عتبة باب بيتنا الأمامية قليلا. أخذت (يا حبيبتي) أرقبها والمالك الجديد يبتسم داخلها إلى أن غابت عن ناظري تماما. حتى إنني لم أنتبه لحظة أن هممت بالدخول إلى وقفة أشرف المعتادة وراء النافذة. لقد رأى (يا حبيبتي) كل شيء". قالت كما لو أنها تقرر أمرا عاديا:

"على أية حال، كانت سيارة رائعة".

أثناء ذلك، ظللتُ أتحسس، بأصابعَ مرتجفة ولوعةِ يتيم باغته الليل، تلك الصورة من "عقد البيع" الصادر "قبل ساعات قليلة" من توكيل "تويوتا" في تلك الضاحية الراقية الواقعة شرق المدينة، وقد أخذ يرسخ في ذهني شيئا بعد شيء أن هذا كل ما قد تبقي لنا الآن منها.

من كتاب القاهرة الطيبة

وداع في صباح باهت بعيد

غادر الرصيف. ومشى ببطء بين الورش ومكاتب المفتشين ذات الطابع الاستعماري القديم، ثم انحدر شرق مساكن عمال السكة الحديد الحمراء الكابية. رويداً رويداً زاد من سرعته، واندفع بُعيد مطاحن الغلال، مخترقاً حقول الرز المغمورة بالمياه وجسر الحديد المقام على نهر صالحين.

ما إن توغل داخل عشب السهل الأصفر الحائل ذي الفجوات الحجرية الواسعة، حتى أجهش بالبكاء بين وجوه المسافرين الساهمة وراء الأجمة المتناثرة من أشجار السنط، حيث تشرئب منذ قديم الأزل سلسلة جبال العاديات، ملقية في نفس الرائي بذرة الشعور بالضآلة أو الفناء. وقد بدا لكثافة صمتها الثقيل الموحش على رغم زلزلة القطار الهادر وكأنها لا تزال تصغي لأحلام المهدي بغزو العالم في زمان لن يعود، البتة.

كانت الشوارع الجانبية المُتربة خالية أو تكاد.

كان يتقدمه شقيقه الذي يصغره بنحو عامين، دافعاً الدراجة عبر التراب الكثيف الموحل، "هذا ما يدعونه فراق

الوطن"، قال في نفسه. وواصل السير، مختزناً في ذاكرته ما تبقى من الأماكن الاليفة الآخذة في التراجع عكس إيقاع خطواته، وبينما كان يتأمل اهتزاز شنطته "الهاند باك" المربوطة الى سرج الدراجة الخلفي بحبّ وعناية كبيرين، أدرك بكثير من الأسى أن سنواتهما القليلة التي عاشاها معاً كشقيقين قد ضاع معظمها في خضم النزاعات اليومية الصغيرة.

آنئذ، هرع اليه.

ودَّ فقط أن يقول له بكل بساطة لا يمنحها للناس عادة سوى الرحيل أو الإحساس الغريزي بدنو الخطر:

"لو تدري يا أخي العزيز كم أحبك". لكنه كان قد وضع الدراجة بعد مشقة على طرف الشارع الرئيسي المسفلت، واعتلى سرجها الأمامي، مشيراً إليه وهو يأخذ وضع الانطلاق، بالركوب. يكاد الآن يحس بصفير أنفاسه اللاهثة وراء أذنيه، وهو يردفه أمامه صوب محطة القطار القريبة من دون كلمة واحدة.

كانت تشير الى السادسة وخمس وعشرين دقيقة وثوان، عندما أطلق صافرته الحزينة الممطوطة، وغادر الرصيف، مُفتتحاً فصول رحلة لا يعلم إلا الله متى وكيف وأين تنتهي؟.

في قادم الأيام، الشهور، أو السنوات، سيفكر في ذات الاماكن الاليفة، سيحكي عنها، وسيزورها أثناء النوم، يتردد

إليها، يتلمسها بحنو، يكلم في داخلها الوجوه التي أحب، يستمع في أرجائها إلى رنين ضحكته المفقودة منذ أمد، ثم يركض، ويركض، ويركض كعهد طفولته في الشارع ذي التراب الكثيف الموحل الذي يشهد خطواته الاخيرة الآن، قبل أن يصحو من نومه متوحداً أو فزعاً أو ظامئاً أو مجهداً بين جدران غرفة السطح المؤجرة في بناية قديمة تطل على أحد شوارع القاهرة في كآبة.

سيلازمه هذا الحلم كظله، وسيتكرر حتى خلال نومه النهاري القصير المتباعد إلى أن يشرع أمام سيل الخيبات الذي لا يرحم في التأكد داخل الحلم نفسه أن ما يراه ليس حلماً، بل الحقيقة.

هناك، أمام باب الحوش، قبل دقائق قليلة، ودع والده "وداع رجل لرجل". السائل المائي الحارق، أخذ يتصاعد الى عينيه فور أن انفلت من حضن أمّه، وكثيرة هي الدموع التي ذرفنها شقيقاته في أعقابه.

كذلك بدأ السير، مقتفياً آثار شقيقه الى الشارع الرئيسي المُسفلت حيث انطلقا معا بالدراجة صوب محطة القطار القريبة من دون كلمة واحدة.

لقد كن ذات الشقيقات، اللائي سيغرقنه في سنوات غربته الأولى بالرسائل، راسمات على حوافها الزهور الذابلة والقلوب التي حطمها البعد، ذاكرات من سطر لآخر أن بهن من الأشواق إليه ما يكفي لهدم جبال العاديات وتجفيف نهر

صالحين وحرق غابات السنط النضيرة. وقتها كان ولا يزال منغمساً في سعيه الحثيث خلف طموح ظل مطموراً في أعماقه السحيقة، فكشف عنه الرحيل مثلما يكشف عن نفسه على حين غرة البركان الخامد أو الزلزال المدمر.

يا إلهي، لماذا لماذا، لماذا تبقى اللحظات الاخيرة من علاقاتنا نحن البشر محفورة في تلافيف الذاكرة الى هذه الدرجة من العمق أو الثبات"؟.

هكذا، تساءل ذات نهار قائظ بعيد أسفل تمثال رمسيس. وإذا أحسَّ فيما يشبه الكشف المتأخر بوجود أشياء في العالم مثل حضن الأمّ لا يعوّض عن غيابها الزمن، أدرك للمرة الأولى حجم ذلك الفراغ المهول الذي أحدثه في نفسه رحيل والده قبل سنوات من غير أن يتاح له حتى عزاء أن يحمل النعش إلى مثواه الأخير.

هناك، عند منحنى الشارع ذي التراب الكثيف الموحل، توقف دفعة واحدة واستدار. بالكاد رفع يده اليمنى. لوّح مودعاً. كان المشهد العائلي قد بدأ بالفعل في التشتت مرة وإلى الأبد.

آنذاك، رأى والده، بمسبحته الحجازية، ناظراً الى وجه الأرض في شرود، والشقيقات الثلاث، اللائي سينقطعن تباعاً عن كتابة تلك الرسائل من طرف واحد ظلّ يبث طويلاً لواعجه الأخوية بلا جدوى، مازلن ملتفات حول إبتسامة أمّه المشجِّعة، يلوّحن له في وقت واحد بأيديهن الست، وقد بدون

كأغصان شجرة، هزَّتها رياح ذلك الصباح، التي بدأت تنشط شيئاً فشيئاً، والتي ستمحو بعد قليل آثار اقدامه على ظهر الشارع المترب، لا محالة.

زاوية لرجل وحيد في بناية

أقطن في بناية مكوَّنة من ثلاث طبقات تطل على شارع أبي بكر الصديق في "مصر الجديدة". تجاورها، من ناحية الغرب، بناية نحيلة مكوَّنة من خمسة طوابق، يطل مدخلها المعتم الكابي على شارع هارون الرشيد، بينما تشرئب في باحتها الأمامية شجرة أخذت تستحوذ بمرور الوقت على مركزِ تفكيري شيئا بعد شيئ. حتى الآن، لا أدري ما الذي ظلّ يشدني إليها على ذلك النحو الآسر؟.

كان بين البنايتين ممران جانبيان يفصل بينهما حائط قصير. ومع ذلك، كانت محض شجرة عتيقة ، لا تثير في دواخلي أدنى خلجة من تلك الأحاسيس، عندما أراها كاملة أثناء سيري في شارع هارون، قبل أن أنحرف يسارا نحو بنايتي، حيث درجت منذ مدة على ممارسة حياتي العادية بين جدران غرفة السطح المؤجرة، وقد أحاطت بي من كل ناحية هوائيات الإرسال التلفزيوني مثل شواهد مقبرة مسيحية قديمة.

كنت في أحيان كثيرة أتوقف في شارع هارون. أطيل النظر إليها من فوق الرصيف. أتمعن فيها برويَّة، باحثا جهدي

كله عن سر تلك الأحاسيس، التي ظلت تجتاحني كلما أبصرت فروعها العالية من "هناك".

كذلك، وعلى الدوام، بدا الأمر لي من هذه الزاوية:

مجرد شجرة "عادية"، تكاد تحتل الجانب الأيمن من واجهة البناية المجاورة، وهي تنتصب صوب ذلك الفضاء بساق ضخمة، فيما أفرعها الأكثر علوا تتهادى في ثباتها غير بعيد من أبواب الغرف الجانبية المفضية إلى بلكونات الطابق الرابع المحاطة بشبكة حديدية صدئة. على أن الأمر يختلف حقا حين أرنو إليها من هناك.

أي سحر، أية فتنة، بل أي جمال غامر أجدني سابحا داخله وقتها؟.

ربما لهذا ظللت أحرص في أيام الخميس على العودة قبل حلول ساعة الأصيل من جولاتي الغامضة في وسط المدينة. كان ذلك وقتا كافيا لدخول الحمام على عجل، إعداد كوب من الشاي، ثم الجلوس بحواسي كلها أمام غرفة السطح المؤجرة انتظارًا لظهور الشجرة.. المتعة.

بعد ثوان أشبه بدهر من يأس ورجاء، أبدأ في التململ، متنفسا بصعوبة وبطء كما لو أنني أقترب من نهاية قمة جبلية، مرتعشا كمراهق على أعتاب القبلة الأولى، بينما تنصب عيناي على نافذة موصدة في ظهر البناية المجاورة تقبع وراءها امرأة. نافذة لا تفتح إلا نحو الساعة من كل أسبوع. وكان ذلك

في شهوره الأولى يثير حيرتي إلى حد بعيد.. قبل أن أتحول عنه تماما إلى معشوقتي.. الشجرة.

كذلك، لم يكن بوسعي – ساعة أن تعرض جارتي، في أيام الخميس، عن فتح نافذة غرفتها، ما بين السابعة والثامنة مساءا (إذا كان الوقت صيفا).. أو الرابعة والخامسة (إذا كان الوقت في الشتاء) – رؤية الشجرة في فروعها العالية العالية.

أخيرا، أرهف أذني لصرير رتاج النافذة . وهو يتناهى مثل مطلع سمفونية عبر الفراغ القصير القائم بين البنايتين. لا تمضي سوى ثانية واحدة، حتي تلوح ذرى راحتيها، ثم ذراعاها وهما يدفعان ضلفتي الشيش الأزرق الباهت نحو جانبي الحائط في جلبة.. ولا أروع!.

على هذا النحو، كان وجه جارتي يطل على العالم، ناظرا خطفا إلى أسفل، أو إلى أعلى، أو متلفتا يمنة ويسرة، قبل أن يختفي داخل الشقة لأمر ما.

إذ ذاك، إذ ذاك فقط، أستأنف رحلة النظر، عبر النافذة المشرعة للتو، إلى باب غرفتها الجانبي المفتوح على البلكونة و... "مشهد الفروع العالية العالية".

هكذا.. حين أشاهدها من أمام غرفة السطح المؤجرة.. وهي تخربش في دلال منغم وجه السماء.. ثم تنثني سعيدة بعودة الطيور الصغيرة المتعبة.. يجتاحني حب جارف تجاه الكون والجارة ونفسي.

أظل في تحديقي هذا، غافرا لأعدائي ما قد تقدم أو تأخر، إلى أن تطل ثانية، وتغلق النافذة. لينفتح، في قلبي، مثلِ جرح غائر، بابُ السؤال "يا ترى.. هل سأشاهد الفروع.. بيتَ الطيور الصغيرة المتعبة.. مرة أخرى"؟.

"لو لا وجه الجارة، غلق النافذة، وإختفاء باب غرفتها الجانبي لمدى ستة أيام متصلة؛ لما صار كل هذا الرواءِ الجميل"، كنت أدخل السكينة إلى نفسي. وأخاف، إذا تغييبتَ، في مرة مقبلة، لأي سبب، كأن يأخذني النوم خلسة، أو تمطر بغزارة؛ أن يكمل الزمن دورتين. ولا أراها، وهي تميل سعيدة بعودة الطيور الصغيرة المتعبة، قبل مرور ثلاثة عشر يوما بالتمام.

أذكر، في هذه اللحظة، أن النافذة، ومنذ أسابيع خلت، ظلت موصدة في مساءات الخميس، رغم أني لم أنم، ورغم أنها لم تمطر بغزارة... هذا الشتاء.

إني لأجد ريح نهلة

صدرٌ كاعب. ملامح دقيقة. خصرٌ قال الوهاب له كن فكان ولا أضيق. على كتفيها، حيث أضاف الخالق "مهوى خيالاتي الفانية عشقا ورغبة"، ثمة شعر فاحم ينسدل مثل ليلِ سرت في ثنايا حلكته دعواتُ أولئك القائمين الثلث أو يزيدً قليلا.

أما إبتسامتها، أما إبتسامتها "الساحرة الوادعة الرقيقة الحانية"، أما إبتسامتها "ذات الصفاء والبهاء والرواء"، أما إبتسامتها "التي أذابت ركبتيَّ على سعير الدهشة ومارأفت، فلا حول ولا قوة إلا بالله"!.

هكذا، في زحام ذلك العرس، حين بدأ يخرق الأرضِ بشاربه الوليد بالغا به جبال العاديات طولا، رأى نهلة، شقيقةَ العريس، كما لم يرها من قبل. "أجل نهلةٌ، نهلةٌ نهلةٌ، ومأدراك ما نهلة".

"تبارك الله أحسن الخالقين"، همسَ لنفسه.

وشرع يترصدها فيما تبقى من نهار أُترعت جوانحه بالولائم وأنغام الصبايا وزغاريد النسوة الجميلات. وقد أدرك،

دفعة واحدة، أن ماهزّ كيانه، على ذلك النحو، كان ولاريب أوانُ زراعته.. بذرة إحساسه الجديد وهي تعلن عن ذاتها فيما هي تتوغل هناك.. بعيدا بعيدا.. شاقةً طريقها إلى أعماق ذاته السحيقة بيسر ولا هوادة.. قبل أن تتلألأ في الحال زهرةً معطارة زكية.. تزين أرض عواطفه البكر.. حيث لا إختلاج نما.. حتى تلك اللحظة.. سوى "دغل كراهية الشيطان" و"أعشاب حبٍّ الوالدين.. تقاةِ الناس.. وخالِقهم من عدم".

ليلا، قبيل زفاف شقيقها، بعد محاولات أمسكتِ الرهبةُ والحياء بأقدامها، نجح أخيرا في الدنو منها، بينما أخذ يتناهى من مكان سحيق أشبه بعبق تاريخ حميم، مبينا الغاية والوسيلة، شارحاً الهامش والمتون، واصفا نضار الطريقة والطريق؛ صوتُ شيخه ابن حزم الظاهري "و أقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء، إذا رجا".

"مبروك"، قال.

ولم ينسَ:

"إن شاء الله عُقبالِك".

سحبتْ راحتها الدقيقة من باطن كفه في دلال. وقالت لحظة أن شرع يكابد وهج الأنوثة المتدفق من مدار وجهها حديثا: "الله يبارك فيك، يا حسن، وإنتَ كمان عقبالك". كان بهاء الحفل وضجيجه يختفيان في ظل كلماتها الحيية الوامضة.

منذ تلك اللحظة، ولسنوات ملء أيامها الإشراق، صار مسكونا بعشق نهلة. "أتتبع فقر حركتها ذا الادقاع وغنى سكناتها". "أجرِّدها بعين خيالي فأراها كملكة ساعة الوصل مغسولة ندية". "أسرج بعير إنتظاري خلف نافذة دارنا المطلة على دارها". "أترقب سحر طلعتها، تاليا على تخوم الرؤية، وقاب الفجاءة وقوسيها، ما تيسَّر من آيات الهوى والصبر الجميل:

وَلمَّا أنْ جَلَتْكِ لـــيَ اخْتِلاســـــــاً

أكُـــــفُّ الدّهْرِ للحَيْـــنِ المُتـــاَحِ

رأيْتُ الشّمسَ تطلعُ منْ نقـــــابٍ

وغصنَ البانِ يرفُلُ في وشـــــاحِ

فَلوْ أسْتطيعُ طِرْتُ إليكِ شَوْقـــــاً

وكيفَ يطيرُ مقصوصُ الجنـــــاحِ؟".

هكذا، لأسباب، ما زال يخجل من ذكرها، كان يكتفي من الحبِّ بالنظر. وحين تغيب من مجاله البصري محتجبة داخل دارهم لأيام، ويمضّه رهق الشوق إليها، كان يخلع نعليه، كي يقابله هناك، في سجوده الطويل، طالبا منه، وهو المانع العاطي، أن يتقبل منه دعوتين إثنتين ولا ثالثة:

"اللهم.. خالقَ الذكر والأنثى.. اجعل نِهلة.. بنت الجيران.. من نصيبي.. وأرزقنا.. فالقَ الْحَبِّ والنَّوَى.. ثلاثة أبناء من الذكور.. واحد لنصرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.. الآخر لرعاية والديه حين يدركهما الكبر.. أما الثالث الثالث.. يا مَن لا تخفى عليه في الأرض ولا في السماء خافية.. فأنت أعلم به منّا... واللهم.... ربَّ ابن عباس حبر الأمة... وعليٍّ بن أبي طالب باب مدينة العلم... إدخلني جامعة الخرطوم... فهي مفتاح الفرج لعبد فقير مثلي... فمن لم يدرس باللغة الإنجليزية وأنت العليم ببواطن الآمور فلا مستقبل له".

لكنه، لحكمة لا يعلمها إلا هو، أدخله " دار العلوم".

"في هذه اللحظة.. والذكريات دابة الغريب وسنامِ وصله.. أذكر رنينَ ساعة حائط انجليزية قديمة.. إرتعاش حافة شاربي الذي نما.. وسحابة من حزن غامض عبرت سماء عينيها السوداوين.. حينما أخبرتها في حشد من الجيران بسفري الوشيك إلى أرض الكنانة". حتى الآن، ما زال يتساءل آناء الليل وأطراف النهار:

"هل كانت تهجس لحظتها بكل ما سيجري أثناء غيابي الطويل"؟.

في سنوات الدراسة المتخمة بالرسوب، بُعيد خيام الجرجاني، أو شامَ قواعد الخليل بن أحمد، أو حتى عند شروح ابن طباطبا؛ كان يتلقف أخبارها.. يتسقطها من هنا وهناك. وفي كل مرة.. لذات الأسباب ربما.. كان يسلك للسؤال عنها

طرقا ملتوية وصيغا غامضة.. وكان طيفها يطل.. دائما دائما.. من أروقة "دار العلوم".. مثل نسمة صبر تمنح المعنى لكلماتٍ في عنادِ "جعجع" و"مجمجم" و"عقنقل".

و ما إن يحلّ عليه مساء آخر حزين، حتى يكفّ عن عادة الطواف حول غرفة السطح المؤجرة، شارعا في مغالبة هوانَ الغرباء، دمع البين، وأشياء أخرى.

و إذا المآقي نضبت.. وغار ماؤها في صحراء الفقد ولا أمل.. وتقطّعت به الأسباب وغامت الطريق أمامه وتلاشت الرؤية وعزّ الصديق والرفيق المؤانس.. يبدأ بالنظر في أسى إلى سماء القاهرة المضيئة.. وليس ثمة من عزاء سوى النشيد:

لَيَاليّ بَعْدَ الظّاعِنِينَ شُكُولُ
طِوالٌ ولَيْلُ العاشِقِينَ طَويلُ
يُبِنَّ لِيَ البَدْرَ الذي لا أُريدُهُ
وَيُخفِينَ بَدْراً مَا إلَيْهِ سَبيلُ

هكذا هكذا، عند تشابك الهواجس واضطرام الضعف اللذيذ، كان يخلع نعليه.. كي يقابله هناك.. داخل صحن الجامع الأزهر.. طالبا منه هذه المرة إستجابة دعاء من أهلكه ثقل الحنين:

"اللهم.. ربَّ السبعة.. الذين ستظلهم بظلك.. يوم لا ظل إلا ظلك.. لولا تصرف عني سحر المصريات.. أصبو إليهن.. وأجهل حبَّ نهلة.. فثبِت أقدام العاشق.. واحفظ نهلةَ في غيابي.. وقِها.. مُجيبَ الدعواتِ.. شرَّ غريمٍ أجهله، آمين".

أعواد بخور

غنى

كان الشارع خالياً تماماً من المارة. كانت درجة الحرارة تلاحق نسبة الرطوبة في الإرتفاع. كنت أسير حذاء البنايات الأسمنتية العالية. فجأة، انشقت الأرض عن طفلٍ شديد الهزال. "تشترِي"، سألني، وهو يمدُّ نحوي علبة مناديلٍ ورقية صغيرة. فتشت في جيوبي بتمهل. ثم نظرت إلى خطوط العرق المنحدرة من جبينِهِ الدقيق. "لا توجد نقود"، أجبته . وشعرت بيده الخالية وهي ترَبِتَ برفق على يدي وتبتعد.

عبور

و قالت لي: "تعالْ". ثم نَضَّتْ عنها الملاءة الملفوفة. كانت قد خرجت من الحمَّام للتو. باعدتْ ما بين فخذيها. أَوغلتُ ببطء. بلغ كلانا الذروة في لحظة واحدة. كل ذلك تم عبر الهاتف.

صدى

كنت أقرأ لها عبر ذات الهاتف ما قد صنعت يدانا. كانت تنصت كما لو أنها غير موجودة هناك. حين أنهيت آخر جملة.. وتكشَّف لها مغزى الكتابة كاملا.. أطلقتْ ضحكة.. مازال وقعها الدافق الحزين.. يرن داخل أُذنيَّ حتى الآن.

وجه

"يا إلهي". صرختْ امرأة في أواخر الستين. وبدا، وهي تقترب منه أكثر فأكثر، وهو يتلقاها بيديه القويتين، وكأنها على وشك السقوط. أجلسها إلى جانب الطريق بحنوٍّ شديد. وقال: "ما بكِ يا أمي؟". تفرَّستْ في ملامح وجهه القريبة ملياً. وقالت: "لا.. لا شيءَ.. يا ولدي". هل رأيتهما مثلي: يتباعدان، ينهضان معاً، ويتابع كل منهما السير في طريق؟.

حياة

مغمض العينين، خافت الصوت، ملتف الساقين، متمدداً على "عنقريب" عتيق، أخذ يستعيد "قصة بناء هذا البيت". كانت تواصل الإصغاء جالسة قبالته على مقعد صغير، بينما حبات مسبحة حجازية خضراء باهتة تتساقط من بين أصابعه النحيلة المعروقة واحدة واحدة؛ عندما تناهى من أقصى الحوش ضجيج أحفادهما المرح السعيد. قالت وهي لا تزال تتابع النظر إلى ضوء الشمس الغارب وراء النافذة المشرعة: "ها هم، يا حاج، مرة أخرى، يمارسون لعبة العريس والعروس، لعلك تنام الآن"؟.

شبح

دفعة واحدة قفزتُ من السرير.. جذبت الباب.. مددت رأسي للخارج.. تلفت يمنة ويسرة.. قبل أن أعود إلى حضن زوجتي المذعورة عاريا تماما. "لا شيء هناك"، أجبتها. لسبب ما بدا، وراء ضوء الأباجورة الخافت، وكأن للستائر المسدلة عينا طفل كنته في زمان بعيد.

خاتمة

شراء لُعبة تدعى "كيربي"

قبل أسابيع قليلة، إلى جانب إحدى بوابات المستشفى نفسها، كنت أدخن خلال ذلك الوقت الوجيز المخصص للراحة بين ساعات العمل، أتأمّل في أعقاب السجائر المتناثرة هنا وهناك، فإذا بالأرض الرووْم تنشق عنه بغتة.

قال وهو يتوقف قبالتي إنه كان قبل يومين فقط "يلف" في الحيّ الذي أسكن "داخل نطاقه"، وإنه (حسب وصفهم) لم يتعرَّف على بيتي، وإنه كان يهم ساعتها بزيارتي، وصمت.

يا لوداعة صالح الطيب!.

لم يتخل، حتى تلك اللحظة، وبرغم سنوات منفاه الطويلة الممتدة، عن عادة النشأة الأولى في التعرّف على العناوين ورؤية الناس من غير إشعار مُسبق.

أذكر، في لقاء عابر آخر، أنه قد قام بكتابة أرقام هاتفيَّ، الجوال والبيت معا، على ظهر غلاف كتاب يدعى "لوعة الغياب". لعل الكتاب لم يكن في معيته حين همَّ بزيارتي. قلت له كمن يتابع أحاديث قديمة لم تكتمل (كالعادة) في أوانها:

"كنت قبل حضورك مباشرة (يا صالح) أتأمّل في هذه الأعقاب المتناثرة من السجائر، فتأمّل"؟.

كان ثمة شيء يشدني دائما إلى مثل هذه الأشياء المهملة. لعله هنا الشوق إلى مطالعة كل تلك الأشجان البشرية الذاهبة عبر أنفاس السجائر المحترقة، بلا عودة. كنت أعلم أنه يدرك جيدا ما رميت إليه. لكنه بدا عازفا أثناء تلك الوقفة القصيرة عن الخوض في مثل تلك الأحاديث العبثية الحالمة. أجل، "ما عادت الأشياء هي الأشياء". قال بسخريته المسالمة: "لعلك (يا ماجد) تفكر في مشروع تجاري بشأنها"؟.

و ضحكنا معا كغريبين، من بلاد بعيدة، جمع بينهما المنفى ولعنة الكتابة وأشياء أخرى. لحظتها، لم أشأ أن أذكر له، لضيق الوقت (ربما)، ما تعلمته في هذا الشأن من حالم آخر كبير، يعلم كلانا أثناء تلك الوقفة أنه يغالب في اللحظة نفسها سرطان المخ بضراوة كاتب لن يتم له التحقق كما أراد طوال حياته القصيرة. وتلك حكمة "أن تتأمل الأشياء على نحو يخرجها من عاديتها".

كان زميلي أدوين، الفلبيني الحالم ببناء بيت فخم، يشاركني التدخين، قبيل ظهوره، خلال ذلك الوقت المخصص للراحة بين ساعات العمل. ويبدو أنه قد أخذ ملاحظة صالح الطيب تلك بشأن المشروع التجاري لأعقاب السجائر بجدية حين صمت غارقا في تأمّل داخلي عميق. لقد كاد بالفعل أن يُفني ذاته في عشق شيء يدعونه "الدولار".

بعد أسابيع قليلة، بادرته متسائلا:

"أتذكر ذلك الرجل الذي كنت أتحدث إليه عند بوابة المستشفى"؟.

شخص بعينين معتكرتين، وقال:

"نعم، أذكره".

قلت له:

"لقد مات، يا أدوين".

هزّ رأسه مسافة وصمت غارقا في تأمّل داخلي بدا لي مختلفا هذه المرة.

بُعيد ذلك، تركنا أدوين وحده أسيرا لتلك التأمّلات غارقين في أشجان لغة أخرى. "أن تحلم بالغنى وهم كبير في هذه البلاد". وربما تحقق الأمر كضربة حظٍّ عابرة لحواجز "الرق الحديث" المرسومة بدقة وبراعة كاهن حاذق. ولم يكن المال على أية حال بالنسبة لصالح الطيب عهدي به سوى وسيلة لا بد منها أحيانا لجلب بعض أفراح الحياة الصغيرة، مثل "وجبة لحم".

كان جسده وهو ممدود على فراش موته يحكي ببراعة مذهلة عن كل تلك الملابسات والوقائع والأحداث التي يمكن أن ينطوي عليها التاريخ العريق للفقر أو المعاناة.

و هو لا يزال على فراش المستشفى، أقبلت إلى المكان المخصص للزوّار خارج قسم "العناية القلبية المكثفة"، إحدى صويحبات زوجته.

كانت سيدة في منتصف الثلاثين تقريبا. بدا من ثرثرتها أنها لم تتخلص بعد مما يدعونه في أوساط المثقفين "آثار الصدمة الحضارية". قالت وهي تحاول أن تنتزعها بلا جدوى من صحراء عزلتها الداخلية المقبضة إن "الخواجات" يتذكرون في مثل هذه الحال "أحبّ الأشياء إلي قلب المريض". ولم تقل "الميت". قالت زوجته من غير تفكير:

"كان يحبّ اللحمة".

هكذا، وجدتني شاردا هناك. أتذكر تلك الليالي القاهرية المشتركة بيننا. فُجعْتُ أنه لم يتبقَ لي منها الكثير. وما تبقى لم يكن سوى ظلال باهتة. لكنَّ شيئا واحدا ظلّ محتفظا مع مرور السنوات بنفس طزاجته الأولى. صوته وهو يخاطب زوجته في نهاية إحدى السهرات، قائلا:

"أين اللحمة، يا أحلام"؟.

آناء تلك الأيام العصيبة، سألتُ طبيبةً معالِجة، وخيط الأمل في عودته معافى للحياة لا يزال معقودا داخل نفسي، قالت بنبرة محايدة كصرير آلة:

"لا يزال في حال سيئة".

هذه إذن ليلة الخوف والرجاء. عبثا أحاول النوم إلى جانب زوجتي المتعبة. الربان في مفترق طرق خطير وحاسم. قد يطيب له المقام أوالرحيل. غدا، تتوقف الآلات الطبية المساعدة للحياة. ليبقى الجسد وحده في مقام القرار.

وِ هو لا يزال طريح الفراش نفسه، بين مصير ومصير، لاحظتْ زوجتي بدهشة أنني قد بدأت أتحدث عنه على نحو يفهم منه كما لو أنه قد مات بالفعل. وكان ذلك منتهى اليأس، أو القنوط. كنت أشير إليه أحيانا في ثنايا الحوار الخافت المتتابع عنه، قائلا بعفوية تامة:

"المرحوم صالح الطيب".

و مع ذلك، ذهبتُ إليه، خلال ذلك النهار الأخير له على سطح هذه الأرض، ناشدته باسم أسرته وأصدقائه وقرّائه "القليلين" أن يبقى. بدا لي كما لو أن خيطا من الدموع أخذ يحيط بعينيه المطبقتين. لاحقا، أدرِكت من إحدى الممرضات أنهم ظلوا يبللون عينيه بسائل مُرطبٍ من آن لآن.

"ياإلهي، ما ألطفك".

طلب مني قبل أن يغادرني لآخر مرة أن نكون على اتصال دائم في "الأيام القادمة". لقد تحقق هذا أثناء غيبوبته الطويلة الممتدة كدهر. قلت له "نحن في حاجة إلى مثل تلك اللقاءات". وأضفت بلوعةٍ كونيّة لا تليق سوى بكاتِبين منفيين حتى النخاع "بذور الكتابة تموت من غير ماء الكلام". وذكرت

على سبيل الحرص شيئا آخر عن أرقام الهاتف. وقلت مُعَضِّدًا جزيرتي ضد أمواج فوضاه العتيقة: "حاول أن تهاتفني أولا، يا صالح". فقط، لو كنت أعلم أن ذلك سيكون آخر لقاء لي به في هذه الحياة؟.

بعد ذلك، تابعته وهو يستدير متجها ناحية الشرق من حيث أتى. وقد رسخ في ذهني أنني بدأت أعتاد على هيئته الجديدة المتداعية مثل بيت آئل للسقوط في أية لحظة. لا شيء يتبقى في الأخير على حال واحدة. قال أدوين كما لو أنه خرج للتو من سياق رواية وجودية:

"وقت الراحة يذهب سريعا".

لم أعلق بشيء.

و قد اعترى سحنته الآسيوية بعض القلق:

"لعلنا قد تأخرنا عن وقت العودة قليلا".

كنت أهبط معه درجات السلم القليلة المنحدرة من شارع "الكينزواي" متجها إلى عملي في الطابق الأرضي من المستشفى. كان صدى تشوقات صالح الطيب لقراءة ما كُتِبَ في غيابه داخل الوطن البعيد لا يزال يتردد داخل أذنيَّ مثل وَقعِ مقطوعةٍ غنائية لم تكتمل. أجل، لقد رحل وفي نفسه شيء من حتىً. وتلك ثلاثون دقيقة لوداع أبدي لا تلاق بعده. قال "لا بد أن أسماء عديدة قد ظهرت في الساحة الثقافية الآن". أومأت برأسي. وهو ابتسم بمرارة.

"أجمل الكلمات تلك التي لم يُمنح ذووها الوقت الكافي لقولها".

قلت له معتذرا من حديثنا باللغة العربية في حضوره:

"ذلك صديق قديم، يا أدوين".

كان في صوتي بعض الأسى والحنين.

سألتني زوجته بعد مضي أكثر من أسبوع على سقطته بالسكتة القلبية.

كان طبيب شاب له وجه راهب طيّب قد أجلسنا معا أنا وهي داخل غرفة جانبية من قسم "العناية القِلّبية المكثفة". طلب مني أن أترجم لها بدقة تلك الأقوال التي تَعرِض عن وطأتها الجبال نفسها. لقد بدا جليّا أن شيئا ما يُقبِل مثل قطار مندفع لا سبيل إلى إيقافه. أخيرا، قالت زوجته: "يريدني إذن أن أمنحه الإذن بموت صالح الطيب"؟.

الله وحده يعلم أيّ سدٍّ متينٍ وراء عينيَّ أخذت تمور خلفه كل تلك الدموع.

قبل كل ذلك، رأيته فجأة يهرول نحوي، وهو يعبر بالكاد منتصف شارع "الكينزواي" ذي الاتجاهين، تماما كما نعبر الشوارع بلا تقاليد معينة في بلادنا، وقد علت وجهه إبتسامة، بينما انعكس شيء من شعاع الشمس الغارب على حواف نظارته الطبية المميزة لهيئته العامة. لقد بدا واضحا من

هرولته تلك كما لو أن روحه تصنع ثورتها الأخيرة على جسد لا يكاد يقوى على حملها.

ذلك ما بدأت أدركه الآن، فقط.

أشار لي بيده بعد أن توقف قبالتي ناحية الشرق. وقال وهو يستجمع أنفاسه اللاهثة: "كنت في الطريق لزيارة صديق يعمل في محطة البنزين تلك. ثم لمحتك تقف هنا. قلت أدردش معك قليلاً". لكأنه أراد وداعي على طريقته الخاصة.

كان آخر ما رأيتُ منه: إبتسامة.. إيماءة مودع.. وهيئة صديق يهم بالذهاب بعيدا. ولم يدر بخلدي لحظتها أنني لن أراه، مرة أخرى، سوى على فراش موته.

قبل أشهر قليلة، كنت أتسوق على عجل في طابق يقع تحت الأرض من مجمع تجاري ضخم يدعى "سيتي سنتر"، وقد أنهيت للتو مهام وظيفتي الأولى بعد منتصف ذلك النهار. وقد بدا لزاما عليَّ أن أذهب بعدها إلى البيت القريب قبل البدء في مهام وظيفتي الأخرى في نحو الخامسة مساء.

كان هناك داخل قاعات الطعام المنتشرة إلى اليسار في نصف قوس أشبه بفم واسع كبير عمال نظافة وموظفون في وقت الراحة ومنفيون أو سياسيون متقاعدون من العالم الثالث ناهيك عن غرباء آخرين بوجوه حزينة شاحبة أضناها السعي وراء الدولار أو الحنين.

"ماجد ماجد".

هكذا، من بين مئات الأصوات وعشرات الألسن التي كانت تشكل الضجة المكتومة داخل ذلك المجمع التجاري الضخم، أخذ يتناهى إلى مسامعي صوت صالح الطيب كعادته أليفا خفيضا برغم نبرة النداء مستوقفا سائلا على بعد خطوات قليلة مني:

"إزيك"؟.

سألته بدوري لحظة أن استقر وميض التحايا في عتمة الوقت الفاصل بين وظيفتين مرهقتين عن "الحال والأحوال". وكان قد بادرني قبل عام قائلا إنه أخذ يعتمد في حياته على ما أسماه "العيش بالحيلة". أُفكِّر فيما إذا كانت وسائله من أجل البقاء قد عطبت حينها في عالم شائك بينما أكاد أرى الآن عينيه المنطفئتين وهما تبحثان بتوسل غامض عما تركه ذلك المصطلح على وجهي من أثر.

لو أن استطلاعا للرأي جرى في هذه المدينة بين أكثر المستهلكين دراية بشؤون الأسواق لمعرفة "ماذا كان يفعل صالح الطيب داخل ذلك المجمع" لما توصل أحدهم لإجابة قريبة من مراميه تلك. بالنسبة لي (رغم معرفتي النسبية به) إلا أن ما علمته منه وقتها بدا لي على نحو من الأنحاء مثيرا للدهشة أو الشفقة.

يا للإنسان مغمورا في كل ذلك البهاء الذي يسبق موته.

كانت المحلات داخل المجمع التجاري تغري بالشراء. كل منتج تم عرضه بجاذبية وعناية فائقة: الملابس، لعب الأطفال، الأطعمة، وغير ذلك مما وصلت إليه في حمَّى المنافسة يد خبراء وعمال مهرة بدا لي دائما كما لو أن الله قد خلقهم فقط للقيام بهذه المهمة أو تلك.

قال مشيرا بيده إنه أتى "إلى هنا" لأن "ذلك المحل يُقدِّم هذه الأيام" تخفيضات في أسعار الأقلام والورق وأشياء أخرى خاصة بمتطلبات "الكتابة". ثم دعاني لتفقد المحل المذكور معا. وألح برغبة طفل موضحا أن بوسعي "الآن" إلقاء نظرة سريعة لن تأخذ من وقتي الكثير. أوشكت أن أخبره أنني لم أعد أستخدم الورقة والقلم لكتابة شيء ما. لقد وقعت ببساطة في أسر ساحر غريب الأطوار يدعى "الكومبيوتر".

لو أنني قمت بتلبية دعوته ضاربا عرض الحائط بواجبات وظيفتي الأخرى ولو لمرة واحدة لربما رأيته وهو يداعب تلك الأوراق والأقلام والدفاتر البيضاء بكل ذلك الحنان الذي يمكن أن تحدثه أنامل ناقد حصيف على مشارف الكتابة.

بعد تسع سنوات، أو قبل أشهر قليلة، وبينما كنت أهبط من الباص رقم (8) في إحدى محطات وسط المدينة متجها صوب عملي الآخر مُبكراً على غير العادة، بادرني شخص طاعن في السن بالسلام وهو يمد يده اليمنى نحو كتفي على طريقتنا السودانية. لبثت حائرا للحظات لم تكن قصيرة قبل أن أدرك بشيء من الأسى أنني أمام صالح الطيب وجها لوجه.

كان يهم بالصعود إلى ذات الباص الذي هبطت منه للتو. لعله كان متجها لتفقد أسرته الصغيرة في جنوب المدينة. قلت له:

"لقد تغيرتَ كثيرا يا صالح".

قال "أنا طبعا السُكري والضغط ولكنك لا تزال بصحة جيدة تماما كما تبدو من صورتك في بعض مواقع الصحف على الانترنت". لا أنكر أنني قرأت وقتها في سري بعض التعويذات الدينية التي ظلت أمّي ترددها في مثل هذه المواقف.

لكأنني أحادث أنسانا غريبا لأول مرة.

قبلها، حاولت التخفيف من وطأة ذلك الشعور المواربـ بالرثاء تجاهه موضحا أن الزمن قد ترك أيضا شيئا من آثاره على ملامحي. وقلت بحسٍّ رفاقيٍّ خالص هذه المرة: "لا تقلق، يا صديقي، لقد ملأتْ الدمامل حوائط روحي منذ سنوات عديدة". وشرع كلانا يتوغل على حين غرة داخل دهليز الصمت الكثيف الذي حل منذ ثوان مثل صفعة على وجه حالم.

كان لا يزال يقلب بين يديه "لوعة الغياب"، للكاتب عبدالرحمن منيف، حين أخذ يتحدث فجأة عن "مفهوم الموت" لدى نجيب محفوظ وأمل دنقل وربما جمال حمدان إن لم تخن الذاكرة الآن. غريبان. يجلسان في محطة. يتحدثان خطفا عن معضلة أزليّة. قال:

"لقد تعاملوا مع الموت كحادثة عادية".

و أخذنا كما تلك الأيام الخوالي على مقاهي القاهرة نحرق السيجارة تلو السيجارة في تتابع مذهل. "إنها إحدى مُتع الحياة الصغيرة، يا صديقي". كان يحلو له أن يقول في تلك الأيام. قال وهو يجيبني على سنوات غيابه التسع إنه أنهى تأليف سبعة كتب. فكرت بيني وبين نفسي في شح المصادر والمصاعب الأخرى التي قد يكون واجهها كناقد يكتب من منفاه البعيد. ناهيك أن عملية إنجاز كتاب واحد فقط مسألة تستنفد الكثير من الطاقات الداخلية للمرء. سألني قاطعا حبل تفكيري القصير:

"و أنت، ماذا كتبت"؟.

قلت:

"لا شيء، أتقلب بين الوظائف الهامشية فقط".

حين رأيته ينطوي على نفسه حزينا:

"ربما أكتب مرثية لك".

و انفجرنا بالضحك، فجأة.

كانت الغرفة مشحونة برهبة الموت الماثل. كانت زوجته لا تزال تبدو إلى جواري حزينة بائسة مسلوبة من أية إرادة متعبة وغارقة في وحدتها المقبضة. تماما، "مثل قطّة مبتلة بماء المطر". وكان قد مر أيام منذ أن أصيب بتلك السكتة القلبية وأسعف. قال الطبيب الشاب وهو يحتفظ بنفس

رباطة الجأش والنبرة المتفهمة الهادئة إنهم كانوا في إنتظار "قرار أخصائي المخ". وإن حالته "ميئوس منها تماما". وقال وهو ينظر إليها وهي تقبع إلى جواري نظرته إلى سيدة شابة على أعتاب الترمّل:

"قل لها: لقد وافق رئيسه وأخصائي المخ على أن لا أمل هناك في نجاته، وإنه لم يتبق في الأخير سوى موافقة الأسرة على القرار المتخذ برحيله". لكأن شيئا ثقيلا يسحب روحي بعيدا إلى أسفل. سألتني آنذاك ضارعة أن أترجم لها ما يقوله لي الطبيب بشأن وضعه الصحي الأخير كلمة بكلمة. "لا تخفي عني شيئا، يا أخي". قال "قل لها: إن القلب قد عاد إلى دقاته الطبيعية، لكن توقف القلب قبل اسعافه لأكثر من ١٥ إلى ٢٥ دقيقة قد أحدث دمارا واسعا في المخ، لقد ترددوا (ربما) في الإبلاغ عنه لحظة أن توقف قلبه، وإنه يتنفس الآن فقط بمساعدة الآلات الطبية".

يا لها من مهمة شاقة وعسيرة تماما، "الترجمة"؟.

"قل لها: إنهم في العادة يتابعون مثل هذه الحالات لمدة ٢٤ أو٤٨ أوحتى ٧٢ ساعة آملين في تحسنها، لكنه مر عليه الآن أكثر من أسبوع، ولا يزال جسده ينتفض بشدة كلما حاول معالجوه أن يوقفوا تنفسه عبر الآلة المساعدة للحياة، وإن هذا يطيل أمد معاناته، لكأن الجسد يقول دعوني لكي أذهب".

و صمت.

قلت لها:

"لقد توقف الأطباء هنا ولكن قدرة الله لا حدود لها".

وقتها لم أكن أنظر إلى عينيها.

قبل أربع سنوات تقريبا، في أمسية شتائية مضيئة بالثلج الأبيض المترامي وراء نوافذ شقتي الزجاجية الواسعة في مدينة أخرى تدعى "وينبيك"، ولم أكن قد تزوجت وقتها بعد؛ رنّ جرس الهاتف كأصابع روح غريبة تطرق الباب فجأة، فإذا بصوت صالح الطيب نفسه يأتي من الطرف الآخر مهنئا بسلامة وصولي القريب إلى كندا.

كان قد سبقني إلى كندا بنحو خمس سنوات تقريبا، وبدا راغبا في الكلام خلال تلك المحادثة إلى الدرجة التي أنستني فيما يبدو لي الآن أن أسأله كيف تحصّل على رقم هاتفي برغم حداثة عهدي بالمكان، ولعلي أكون قد فعلت (يا عبء الذاكرة وفداحة النسيان)!.

كان حديثه يتجه في أثناء تلك المحادثة إلى تلك المنطقة المشتركة من ذاكرة المنفيين الغرباء: "القاهرة". يومها، سألني عن الناس، الأماكن الأليفة، الحركة الثقافية، وأشياء أخرى لا أريد أن أذكرها الآن، وقد بدا من شدة الحنين وكأن هذه البلاد قد تكشفت له عن وهم كبير، ولا عزاء.

أجل، "نغادر إلى منفىً كيما نحنُ إلى منفىً آخر".

ما أحزنني ساعتها أن شخصا ما ظلَّ يطالبه على الطرف الآخر من الخطّ بإنهاء المكالمة على وجه السرعة. اعتذر لي بتهذيبه المعهود موضحا أنه ظل يشغل الهاتف بينما أحد رفقائه في السكن المشترك يتوقع مكالمة هاتفية ما. كان عاطلا وقتها من العمل. قلت له:

"لا عليك".

وكان قد وعدني قبيل أن يُنهي تلك المكالمة مرغما مسالما أن يمكث معي قريبا بضعة أيام في محافظة "منيتوبا" في طريقه من "ألبرتا" إلى "أونتاريو" في الشرق، وهو ما لم يحدث.

لسبب ما، لم أشأ أثناء كل ذلك أن أسأله عن أسرته الصغيرة.

في المستشفى التي لا أزال أعمل فيها، والتي رحل منها ذات صباح بدت فيه السحب السوداء الكثيفة قريبة كأذرع تمتد لأخذ عزيز من بين يديك مرة واحدة وإلى الأبد، ظللت ألقي نظرة إلى ما وراء الحواجز الزجاجية لتلك الغرفة القريبة من درج الممرضات كلما مررت بقسم العناية القلبية المكثفة.

في كل مرة أفعل فيها ذلك، كان يتراءى لي شحوب تلك الأيام على وجه زوجته، وهي تقف قبالة عينيه المغمضتين، وقد بدا غير بعيد منها الصغيران ضياء وبهاء وهما يعلنان عن

خيبة أملهما الكبرى في شأن وعد كان قد قطعه لهما والدهما قبل أيام قليلة من سقوطه: شراء لعبة تدعى "كيربي".

المحتويات

في ذلك المساء، قالت ماريا إن والدها

في أيامه الأخيرة كان يراه مثل رجل

نحيل يشبه حطام ذكريات بعيدة مات

معظم أطرافها. وما إن يراه حتى

يضرب بنصائح الأطباء عرض الحائط،

ويشرع لسبب ما في تناول كميات

كبيرة من الطعام تكفي في كل مرة

لإشباع كتيبة منهكة من جيش

الكولونيل جرمان بوش أيام حربه

الضروس التي أوصلت غوالبرتو

فيلارول إلى سدة الحكم قبل أن يتحول

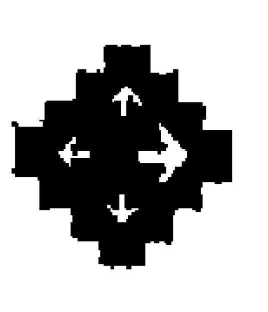
الأمر برمته في ظرف أقل من ثلاث

سنوات إلى كارثة ألقت بوالدها في

أحد المطاعم الكندية غاسلاً للأطباق

وسط الكثير من الآمال الثورية

الغابرة.



تصميم الغلاف : أحمد كامل

دار شرقيات